فلماذا ذكر داود بالذات مقترناً بالكتاب الذى أُنزل عليه ؟ قالوا : لأن داود عليه السلام أوتى مع الكتاب المُلْك ، فكان نبياً ملكاً ، فكان الحق سبحانه يشير إلى أن تفضيل داود لا من حيث أنه ملك ، بل من حيث هو نبى صاحب كتاب .

وفى الحديث الشريف يقول ﷺ : « لقد خُيِّرْتُ بين أن أكون عبداً نبياً أو نبياً ملكاً ، فاخترت أن أكون عبداً نبياً »[1] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾

الله تعالى يقول لرسوله ﷺ : قل للذين يُعارضونك فى الوحدانية إذا مسكم ضُرٌّ فلا تلجأوا إلى مَنْ تكفرون به ، بل الجأوا إلى مَنْ زعمتم أنهم شركاء وآمنتم بهم . فإنهم لن يستمعوا إليك ؛ لأن الإنسان بطبعه لا يخدع نفسه ، ولو علموا أن الذين يتخذونهم آلهة من دون الله ينفعونهم فى شىء لما دَعَوْا ربهم الذى يكفرون به وتركوا الذين يؤمنون بهم ، لماذا ؟

لأن الإنسان لا يتمرد ولا يطغى إلا إذا كان مُسْتغنياً بكل ملكاته ، بمعنى أن تكون ملكاته كلها على هيئة الاستقامة والانسجام ، فإذا

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٣١) من حديث أبى هريرة قال : « جلس جبريل إلى النبى ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل : إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة فلما نزل قال : يا محمد أرسلنى إليك ربك قال : أفملكاً نبياً يجعلك أو عبداً رسولاً . قال جبريل : تواضع لربك يا محمد . قال : بل عبداً رسولاً » .

اختلتْ له ملكة من الملكات ضَعُفَ طغيانه ، وحاول أن يستكمل هذا النقص ، وحينئذ لن يخدع نفسه بأن يطلب الاستكمال مِمَّنْ لا يملكه ، بل يطلبه ممَّنْ يعتقد أنه يملكه .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ .. (٨) ﴾ [الزمر]

لماذا ؟ لأن ما أصابه من ضُرٍّ أضعفه ، وكسر عنده غريزة الاستعلاء والاستكبار ، لقد كفر بالله من قبل حينما حمله التكاليف ، ولكن الآن وبعد أن نزل به الضُّر وأحاط به البلاء فلا بُدَّ أن يكون صريحاً مع نفسه لا يخدعها .

وضربنا لهذه المسألة مثلاً بحلاق الصحة عند أهل الريف في الماضي وكان مسئولاً عن صحَّة الناس ، ويقوم مقام الطبيب في هذا الوقت ، فإذا ما عُيِّن بالقرية طبيب هاجمه الحلاق وأفسد ما بينه وبين الناس ، وأشاع عنه عدم العلم وقلّة الخبرة ليخلوَ له وجه الناس ، ولا يشاركه أحد في رزقه ، ومرَّت الأيام وأصيب الحلاق بضُرٍّ ، حيث مرض ولد له ، فإذا به يحمله خُفْيَةً بليْل ، ويتسلل به إلى الطبيب ، ولكن سرعان ما ينكشف أمره ويُفتضح بين الناس .

إذن : الإنسان في ساعة الضر لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، فقل لهم : إذا مسكم الضر فاذهبوا إلى مَن ادعيتم أنهم آلهة وادعوهم ، فإنهم لن يستجيبوا ولن يدعوهم ، ولو دَعَوْهم فلن يكشفوا عنهم ضرهم : ﴿ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ .. (٥٦) ﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْوِيلاً ۝٥٦ ﴾ [الإسراء] أى : ولا يملكون تحويل حالكم من الضر إلى النفع أو النعمة أو الرحمة ، أو : لا يملكون تحويل هذا الضر إلى أعدائكم ، فهم - إذن - لا يملكون هذه ولا هذه .

فالحق سبحانه يُلقِّن رسوله ﷺ الحجة ، ليوضح لهم أنهم يغالطون أنفسهم ، ويعارضون مواجيدهم وفطرتهم ، فإن أصابهم الضر فى ذواتهم لا يلجأون إلى آلهتهم ؛ لأنهم يعلمون أنها لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً ، ولن تسمعهم ، وإن سمعتهم - فرضاً - ما استجابوا لهم ، ويوم القيامة يكفرون بشركهم ، بل يلجأون إلى الله الذى يملك وحده كَشْف الضُّر عنهم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ[2] أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧ ﴾

فهؤلاء الذين تعتبرونهم آلهة وتتخذونهم شركاء لله ، هؤلاء أيضاً عبيد لله ، يتقربون إليه ويتوسَّلون إليه ، فالمسيح الذى أشركتموه مع الله ، وكذلك الملائكة هم عباد لله : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. ۝١٧٢ ﴾ [النساء]

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج مسلم فى صحيحه (٣٠٣٠) فى كتاب التفسير فى سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن مسعود قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم النفر من الجن واستمسك الإنس بعبادتهم فنزلت الآية .

(٢) الوسيلة : ما يُتقرَّب به إلى الغير . وهى الوُصْلة والقربى . وتوسَّل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل . [لسان العرب - مادة : وسل] .

هؤلاء لا يرفضون ولا يتأبَّوْن أن يكونوا عباداً لله ، ويريدون التقرُّب إليه سبحانه ، فكيف ـ إذن ـ تتوجهون إليهم بالعبادة وهم عباد ؟

وقوله تعالى : ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. ۝٥٧ ﴾ [الإسراء] أى : يطلبون الغاية والقربى إليه تعالى ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ أى : كلما تقرّب واحد منهم إلى الله ابتغى اللهَ أكثرَ من غيره وأقبل عليه ، فإذا كان الأقرب إلى الله منهم يبتغى القُرْبى ، فما بال الأبعد ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧ ﴾ [الإسراء]

أى : يجب الحذر منه وتجنُّب أسبابه ؛ لأن العذاب إذا كان من الله فلا فكاكَ منه ولا مهرب ، وأيضاً فالعذاب يتناسب مع قدرة المعذِّب ضعفاً وشدة ، فإذا نُسب العذاب إلى الله فلا شكَّ أنه أليم شديد ، لا طاقة لأحد به ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢ ﴾ [هود]

والحق سبحانه قد أوضح لنا مسألة الوحدانية فى آيات كثيرة ، ولم يطلب منا الاعتراف بها إلا بعد أنْ شهد بها لنفسه سبحانه ، وبعد أن شهد بها الملائكة وأولو العلم ، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ .. ۝١٨ ﴾ [آل عمران]

فشهد الله سبحانه شهادة الذات للذات ، وشهدتْ الملائكة شهادة المشهد والمعاينة ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، فهذه شهادات ثلاث قبل أنْ يطلب منّا الشهادة .

وبهذه الشهادة أقبل الحق سبحانه على مزاولة سلطانه وقدرته فى الكون ، وما دام « لا إله إلا هو » يقول للشىء : كُنْ فيكون ، قالها لأنه يعلم أنه لا إله إلا هو ، وبها يحكم على الأشياء ويُغيِّر من وضع

إلى وضع ، فإنْ صحَّتْ هذه الشهادات الثلاث فقد انتهت المسألة . وإنْ لم تصح وهناك إله آخر فأين هو ؟! إنْ كان لا يدرى فهو إله نائم لا يصلح لهذه المكانة ، وإنْ كان يدرى فلماذا لم يطالب بحقه .

إذن : فهذه الدَّعْوى قد سلِمتْ للحق سبحانه لأنه لم يدَّعها أحد لنفسه ، فهى للحق تبارك وتعالى حتى يقوم مَنْ يدعيها لنفسه .

قال تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢)﴾ [الإسراء]

أى : لو كان للكون إله آخر لطلبوا هذا الإله الذى استقرتْ له الأمور واستتبَّ له الحال ، ليُجادلوه فى هذه المسألة ، أو لطلبوه ليتقربوا إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾

ساعةَ أنْ تسمعَ (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ) فاعلم أن الأسلوب قائم على نفى وإثبات ، فالمعنى : لا توجد قرية إلا والله مُهلكها قبل يوم القيامة ، أو مُعذِّبها عذاباً شديداً ، لكن هل كل القرى ينسحب عليها هذا الحكم ؟

نقول : لا ، لأن هذا حكم مطلق والإطلاقات فى القرآن تُقيِّدها قرآنيات أخرى ، وسوف نجد مع هذه الآية قول الحق سبحانه : ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)﴾ [الأنعام]

وقال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾ [هود]

فهذه آيات مُخصِّصة تُوضِّح الاستثناء من القاعدة السابقة ، وتُقيِّد المبدأ السابق والسور العام الذى جاءت به الآية ، فيكون المعنى - إذن - وإنْ من قرية غير غافلة وغير مُصلحة إلا والله مُهلكها أو مُعذِّبها .

وقوله : ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا .. (٥٨)﴾ [الإسراء]

﴿مُهْلِكُوهَا﴾ أى : بعذاب الاستئصال الذى لا يُبقِى منهم أحداً .

﴿مُعَذِّبُوهَا﴾ أى : عذاباً دون استئصال .

لأن التعذيب مرحلة أولى ، فإنْ أتى بالنتيجة المطلوبة وأعاد الناس إلى الصواب فبها ونعْمتْ وتنتهى المسألة ، فإنْ لم يقتنعوا وأصرُّوا ولم يرتدعوا وعاندوا يأتى الإهلاك ، وهذا واضح فى قول الحق سبحانه : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

والواقع أن فى حاضرنا شواهدَ عدة على هذه المسألة ، فلا بُدَّ لأىِّ قرية طغتْ وبغَتْ أن ينالها شىء من العذاب ، والأمثلة أمامنا واضحة ، ولا داعىَ لذكرها حتى لا ننكأ جراحنا .

وطبيعى أن يأتى العذاب قبل الإهلاك ؛ لأن العذاب إيلام حىّ

يشعر بالعذاب ويُحِسّ به ، والإهلاك إذهاب للحياة ، وهذا يمنع الإحساس بالعذاب .

وباستقراء تاريخ الأمم السابقة نلاحظ ما حاق بهم من سُنَّة إهلاك الظالمين ، فقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط نزل بهم عذاب الله الذى لا يُرَدُّ عن القوم الكافرين ، ولكنه كان عذاب استئصال ؛ لأن الأنبياء فى هذا الوقت لم يكونوا مُطَالَبين بحمل السلاح لنشر دعوتهم ، فكان عليهم البلاغ ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى يتولّى تأديب المخالفين . إلا إذا طلب أتباع النبى الجهاد معه لنشر دعوته ، كما حدث من أتباع موسى عليه السلام :

﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ..(٢٤٦)﴾ [البقرة]

وهكذا طلب بنو إسرائيل القتال وحَمْل السلاح ، ولكن حذّرهم نبيهم ، وخشى أنْ يفرضَ عليهم ثم يتقاعسوا عنه ، وهذا ما حدث فعلاً ولم يَبْق معه إلا قليل منهم ، وهذا القليل سرعان ما تراجع هو أيضاً واحداً بعد الآخر .

إذن : الهِمَّة الإنسانية فى هذا الوقت لم يكُنْ عندها استعداد ونضج لأنْ تحملَ سلاحاً فى سبيل الله ، فكان على الرسول أنْ يُبلِّغ ، وعلى السماء أنْ تُؤدِّب بهذا اللون من العذاب الذى يستأصلهم فلا يُبقى منهم أحداً .

أما فى أمة محمد ﷺ فقد رحمنا ربنا تبارك وتعالى من هذا العذاب ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ .. (٣٣) ﴾ [الأنفال]

وهذه من كرامات الله تعالى لرسوله ، فلم يأخذ قومه بعذاب الاستئصال ، لماذا ؟ لأن رسولهم آخر الرسل وخاتم الأنبياء ، وسوف يُنَاطُ بهم حَملُ رسالته ونَشْر دعوته ، والانسياح بمنهج الله فى شتى بقاع الأرض .

ذلك لأن الحق - سبحانه وتعالى - حينما يرسل منهجه إلى الأرض يُقدِّر غفلة الناس عن المنهج ، ويُقدِّر فكرة التأسِّى بالجيل السابق ، فهذان مُعوِّقان فى طريق منهج الله ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

فأوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يتخبَّط أو ينحرف عن المنهج ، إما بسبب غفلة ، أو بسبب تقليد أعمى لأسْوة سيئة ، فأول مَنْ تلقى عن الله آدم ، ثم بلَّغ ذريته منهج الله ، وبمرور الأجيال حدثتْ الغفلة عن بعض المنهج نتيجة ما رُكِّب فى الإنسان من حُبٍّ للشهوات ، وهذه الشهوات هى التى تصرفه عن منهج ربه ، فإنْ حدثت غفلة فى جيل فإنها سوف تزداد فى الجيل التالى ، وهكذا ؛ لأن الجيل سيقع تحت مُؤثِّرين : الغفلة الذاتية فيه ، والتأسى بالجيل السابق .

إذن : بتوالى الأجيال وازدياد الغفلة عن المنهج لا بُدَّ أن الحق سبحانه سيبعث فى مواكب الرسل مَنْ يُنبِّه الناس .

ومن هنا كانت أمة محمد ﷺ خَيْر أمة أُخرجَتْ للناس : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. (١١٠)﴾ [آل عمران] لماذا ؟ ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (١١٠)﴾ [آل عمران] فخيرية هذه الأمة ناشئة من حَمْل رسالة الدعوة ، وقد كرَّم الله أمة محمد بأنْ جعل كل مَنْ آمن به يحمل دعوته إلى يوم القيامة ، لقد بلَّغ الرسول مَنْ عاصروه من أمته ، وعلى أمته أن تُبلِّغ مَنْ بعده ؛ لذلك يشهد علينا رسول الله ، ونشهد نحن على الناس .

وفي الحديث الشريف « نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فَرُبَّ مُبلَّغ أَوْعَى من سامع »[1] .

وهكذا تظل في الأمة هذه الخيرية وتحمل دعوة رسولها حيث لا رسول من بعده إلى يوم القيامة ، ولأهمية هذا الدور الذي يقوم به المسلمون في كل زمان ومكان يُنبِّهنا رسول الله ﷺ إلى مسألة هامة في مجال حَمْل الدعوة ونَشْرها ، فيقول : « إن كل واحد منكم يقف على ثغرة من ثغرات هذا الدين ، فإياكم أن يُؤتَى الدين من ثغرة أحدكم » . أو كما قال .

فليعلم كل مسلم أنه محسوب للدين أو عليه ، فالعيون تتطلع إليه وتَرْصُد تصرفاته في مجتمعه ، فهو صورة للدين وسفير له ، وعليه أن يراعي هذه المسئولية ويقوم بها على أكمل وجه ليكون أداة جَذْب ، وليكون وجهاً مشرقاً لتعاليم هذا الدين .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٣٧) والترمذي في سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه في سننه (٢٣٢) والحميدي (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

فـأنت حـارس عـلى باب من الأبواب ، وعليك أنْ تـسـدَّه بصـدق انطبـاعك عن الإيمـان ، وبصـدق انقيـادك لقـضايـا الإسلام ، وبهـذا السلوك تكون وسيلة إغراء للآخـرين الذين يراودهم الإيمان ، ويتراءى لهم منهج الله من بعيد .

ويحلو للبـعض أن يأخذوا الإسلام بجـريرة أهله ، ويحكمـوا عليه بناءً على تصـرفات المنتـسبين إلـيه ، وهذا خطأ ، فَمـنْ أراد الصورة الحـقيـقـية للإسـلام فليـأخذْها من منابع الـدين فى كتـاب الله وسنة رسوله ، فإنْ رأيتَ بين المنتسبـين للإسلام سارقاً فلا تقُلْ : هذا هو الإسلام ؛ لأن الإسـلام حرَّم السرقـة ، وجعل لهـا عقوبة وحَـداً يُقَام على السارق ، وليس لأحد أن يكون حجة على دين الله .

لذلك فـإن كـبـار العلمـاء والـمـفكرين الذين درسـوا فى الدين الإسلامى لم ينظروا إلى تصـرُّفات المسلمين وحـاضرهم ، بل أخذوه من منابعه الأصلية . ومنهم « جينو » الفـرنسى الذى قال : الحمد لله الذى هدانى للإسلام قـبل أن أعرف المسلمـين . لأنه فى الحقيـقة لو اطلع على أحوالنا الآن لكَان فى المسألة كلام آخر .

إذن : الذين نظروا إلى قضايا الإسـلام نظرة عَدْل وإنصاف لا بُدَّ أن يهتـدوا إلى الإسلام ، لكن منهم مَنْ نظر إليه نظرة عَـدْل وإنصاف إلا أنهم أبعدوا قضـية التديُّن من قلوبهم ، وإن اقتنعتْ بهـا عقولهم ، وفَرْق كبير بين القضية العقلية والقضية القلبية .

ومن هؤلاء الكـاتب الذى ألَّفَ كـتـاباً عن العظمـاء فى التـاريخ وأسماه : « العظماء مائة أعظمهم محـمد بن عبد الله » وهو كاتب غير

مؤمن ، لكنه أخذ يستقرىء صفحة التاريخ ، ويسجِّل أصحاب الأعمال الجليلة التى أثَّرت فى تاريخ البشرية ، فوجدهم مائة ، وبالمقارنة بينهم وجد أن أعظمهم محمد ﷺ ، ومع ذلك لم يتربَّ محمد فى مدرسة ، ولم يتخرج فى جامعة ، ولم يجلس إلى مُعلم .

ألم تسأل نفسك أيها المؤلف : من أين أتى محمد بهذه الأوليَّة ؟ ولماذا استحق أن يكون فى المقدمة ؟ لقد ذكرتَ حيثيات النبوغ فى جميع شخصياتك ، من تربية ودراسة فى جامعات وعلى أساتذة وإطلاع وأبحاث ، فلماذا لم تذكر حيثيات النبوغ فى رسول الله ؟ ألم تعلم أنه أُميّ فى أمة أُميّة ؟ مما يدل على أن هذا الباحث تناول هذه القضية بعقله لا بقلبه .

نعود إلى مسألة الإهلاك والعذاب ؛ لأنها أثارتْ خلافاً بين رجال القانون فى موضوع إقامة حَدِّ الرجْم على الزانى المحصن(١) والجلْد للزانى غير المحصن ، فقد رأى جماعة منهم أن الجلد ثابت بالقرآن ، أما الرجم فثابت بالسنة ، لذلك قال بعضهم بأن رجم الزانى المحصَن سنة .

وهذا قول خاطىء وبعيد عن الصواب ، لأن هناك فرقاً بين سُنية الدليل وسُنية الحكم ، فسُنية الدليل أن يكون الأمر فَرْضاً ، لكنَّ دليله من السنة كهذه المسألة التى معنا . وكصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات وهى فَرْض لكن دليلها من السنة ، أما سُنية الحكم فيكون الحكم نفسه سُنة يُثَاب فاعله ، ولا يُعَاقب تاركه كالتسبيح ثلاثاً فى الركوع مثلاً .

---

(١) أحصن الرجل وأحصنت المرأة : تزوج وكان الزواج حِصْن يحمى المتزوج من الوقوع فى الشهوات فهو مُحصن . [القاموس القويم ١/١٥٧] .

إذن : فرجْم الزانى المحصَن فَرْض ، لكن دليله من السنة ، فالسُّنية هنا سُنية دليل ، لا سنية حكم .

فمَنْ يقول : إن الرجْم لم يَرِدْ به نصٌّ فى كتاب الله ، نقول : الدليل عليه جاء فى السنة ، وهى المصدر الثانى للتشريع ، حتى على قول مَنْ قال بأن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ، ففى القرآن :
﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

إذن : ففعْل الرسول ﷺ كنصِّ القرآن سواء بسواء ، وهل رجم فى عهد رسول الله أو لم يرجم ؟ رجم فعلاً فى عهد رسول الله[1] ، فإنْ قال قائل : فهذا ليس نصاً فى الرجْم . نقول : بل الفعل أقوى من النص ؛ لأن النص قد تتأول فيه ، أما الفعل فهو صريح لا يحتمل تأويلاً .

ودليل آخر على فرضية الرجم ، وهو الشاهد فى هذه الآية ، فى قوله تعالى عن إقامة الحد على الأمة : ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥)﴾ [النساء]

فيقولون : الرجْم لا يُنصَّف . إذن : ليس هناك رَجْم . نقول : أنتم لم تُفرِّقوا بين الرجم وبين العذاب ، فالرجم إماتة ، والعذاب إيلام لحيٍّ يشعر ويُحِسُّ بهذا الإيلام ، والمقصود به (الجَلْد) .

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٦٩١ - ١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « أتى رجل من المسلمين رسول الله ﷺ وهو فى المسجد فناداه فقال : يا رسول الله إنى زنيت فاعرض عنه فتنحى تلقاء وجهه فقال له : يا رسول الله إنى زنيت فأعرض عنه حتى ثنى ذلك عليه أربع مرات ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله ﷺ فقال : أبك جنون ؟ قال : لا . قال : فهل أحصنت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : اذهبوا به فارجموه » .

إذن : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥) ﴾ [النساء] أى : من الجَلْد ، وهو الذى يُنصَّف ، ولو كان الحكم عاماً لَقَال : فعليهن نصف ما على المحصنات . فقوله : ﴿ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥) ﴾ [النساء] دليل على وجود الرَّجْم الذى لا فَرْق فيه بين حُرة وأمة.

وكذلك نلحظ التدرج من العذاب إلى الإهلاك فى قول سليمان ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ حينما تفقَّد الطير ، واكتشف غياب الهدهد : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ .. (٢١) ﴾ [النمل]

ولسائل أنْ يسأل : هل لا بُدَّ للقرى الظالمة أن ينالها الإهلاك أو العذاب قبل يوم القيامة ؟

نعم لابُدَّ أن يمسَّهم شىء من هذا ؛ لأن الله تعالى لو أخَّر كل العذاب لهؤلاء إلى يوم القيامة لاستشرى الظلم وعمَّ الفساد فى الكون ، وحين يرى الناس الظالم يرتع فى الحياة ، وينعم بها مع ظلمه لأغراهم ذلك بالظلم ، أما إذا رأوه وقد حاق به سوء عمله ، ونزلت به النوازل لارتدعوا عن الظلم ، ولَعلموا أن عاقبته وخيمة ، ولن يفلت الظالم من عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة . أما لو تأخر عذاب الظالمين إلى الآخرة ، فالويْل ممَّنْ لا يؤمنون بها .

لذلك لما مات رأسٌ من رؤوس الظلم فى الشام ، ولم يَرَ الناس عليه أثراً لعذاب أو نقمة ، قال أحدهم : إن وراء هذه الدار داراً يُجَازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ؛ لأنه يستحيل أنْ يُفلتَ الظالم من العذاب .

وفى مناقشتى مع الشيوعيين فى بروكسل قلت لهم : لقد قسوتُمْ

على المخالفين لكم من الرأسماليين والإقطاعيين عام ١٩١٧ وما بعدها ، فقالوا : إنهم يستحقون أكثر من ذلك ، فقد فعلوا كذا وكذا ، قُلْت : منذ متى ؟ قالوا : طوال عمرهم وهم يفعلون ذلك ، فقلتُ : إذا كنتم أخذتم المعاصرين لكم بذنوبهم ، فما بال الذين سبقوهم ؟ وما حظّهم من العقاب الذى أنزلتموه بإخوانهم ؟ قالوا : ما أدركناهم .

قلت : إذن كان من الواجب عليكم أنْ تؤمنوا باليوم الآخر ، حيث سيعذب فيه هؤلاء ، فإنْ افلتوا من عذاب الدنيا جاءت الآخرة لتُصفّي معهم الحساب ، كما يقول تعالى : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور] وأريد منكم أنْ تطلعوا على تفسير هذه الآية التي نحن بصددها : ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾ [الإسراء]

راجعوا تفسيرها في كتاب النسفى[1] ، وسوف تجدون به أمثلة تُؤيِّد هذه الآية ، يقول : قرية كذا سيحدث لها كذا ، وقرية كذا سيحدث لها كذا . وقد جاء الواقع على وفق ما قال ، إلى أن ذكر مصر وقال عنها كلاماً طويلاً أظن أنه يُمثِّل ما أصاب مصر منذ سنة ١٩٥٢ ، وكان مما قال عنها : ويدخل مصر رجل من جهينة فويلٌ لأهلها ، وويل لأهل الشام ، وويل لأهل أفريقيا ، وويل لأهل الرملة ، ولا يدخل بيت المقدس[2] . اقرأوا هذا الكلام عند النسفى .

ثم يقول تعالى : ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾ [الإسراء]

---

(١) النسفى هو أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفى (ت ٧٠١ هـ) وكتابه فى التفسير هو المسمى « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

(٢) أورد النسفى هذا فى تفسيره (٢/٣١٨) طبعة دار الفكر قال : « وعن مقاتل وجدت فى كتب الضحاك فى تفسيرها » ، وساق ما قاله الشيخ الشعراوى هنا بنصه .

أى : مُسجَّل ومُسطَّر فى اللوح المحفوظ ، ولا يقول الحق سبحانه : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الإسراء] وتأتى الأحداث بغير ذلك ، بل لابُدَّ أنْ يؤكد هذه الحقائق القرآنية بأحداث كونية واقعية .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾

الآيات : جمع آية ، وهى الأمر العجيب الذى يلفت النظر ويسترعى الانتباه ، وهذه الآيات إما أن تكون آيات كونية نستدل بها على قدرة المدبِّر الأعلى سبحانه مثل المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت]

وقد تكون الآيات بمعنى المعجزة التى تثبت صدْق الرسول فى البلاغ عن ربه تعالى ، وقد تكون الآيات بمعنى آيات القرآن الكريم ، والتى يسمونها حاملة الأحكام .

فالآياتُ إذن ثلاثة : كونية ، ومعجزات ، وآيات القرآن . فأيها

(١) سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعون ، فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم لعلنا نجتبى منهم ، وإن شئت نؤتهم الذى سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم ، قال : لا ، بل أستأنى بهم . فأنزل الله عز وجل ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء] .

المقصود فى الآية : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ .. (٥٩)﴾ [الإسراء]

الآيات الكونية وهى موجودة لا تحتاج إلى إرسال ، الآيات القرآنية وهى موجودة أيضاً ، بقى المعجزات وهى موجودة ، وقد جاءت معجزة كل نبى على حَسْب نبوغ قومه ، فجاءت معجزة موسى من نوع السحر الذى نبغ فيه بنو إسرائيل ، وكذلك جاءت معجزة عيسى مما نبغ فيه قومه من الطب .

وجاءت معجزة محمد ﷺ فى الفصاحة والبلاغة والبيان ؛ لأن العرب لم يُظهروا نبوغاً فى غير هذا المجال ، فتحدَّاهم بما يعرفونه ويُجيدونه ليكون ذلك أبلغ فى الحجة عليهم .

إذن : فما المقصود بالآيات التى منعها الله عنهم ؟

المقصود بها ما طلبوه من معجزات أخرى ، جاءت فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣)﴾ [الإسراء]

والمتأمل فى كل هذه الاقتراحات من كفار مكة يجدها بعيدة كل البُعْد عن مجال المعجزة التى يُراد بها فى المقام الأول تثبيت الرسول ، وبيان صِدْق رسالته وتبليغه عن الله ، وهذه لا تكون إلا فى أمر نبغ فيه قومه ولهم به إلمام ، وهم أمة كلام وفصاحة وبلاغة ، وهل لهم إلمام بتفجير الينابيع من الأرض ؟ وهل إسقاط السماء

عليهم كِسَفاً يقوم دليلاً على صدْق الرسول ؟ أم أنه الجدل العقيم والاستكبار عن قبول الحق ؟

إذن : جلس كفار مكة يقترحون الآيات ويطلبون المعجزات ، والحق سبحانه وتعالى يُنزل من المعجزات ما يشاء ، وليس لأحد أن يقترح على الله أو يُجبره على شيء ، قال تعالى : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا[1] مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

فالحق تبارك وتعالى قادر أن يُنزل عليهم ما اقترحوه من الآيات ، فهو سبحانه لا يُعجزه شيء ، ولا يتعاظمه شيء ، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. (٥٩)﴾ [الإسراء]

مبصرة : أى آية بينة واضحة .

لقد طلب قوم ثمود معجزة بعينها[2] فأجابهم الله وأنزلها لهم ، فما كان منهم إلا أن استكبروا عن الإيمان ، وكفروا بالآية التى طلبوها ،

---

(١) قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة : قد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين عاماً . وعن سعيد بن المسيب : ثلاثاً وأربعين سنة . قال ابن كثير فى تفسيره (٤١٠/٢) : « والصحيح المشهور الأول » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٢٨/٢) : « كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيَّنوها بأنفسهم وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة ، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض (أى : دنا ولادها وأخذها الطلق) ، فجاءت كما سألوا ، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها » .

بل وأكثر من ذلك ظلموا بها أى : جاروا على الناقة نفسها ، وتجرّأوا عليها فعقروها .

وهذه السابقة مع ثمود هى التى منعتنا عن إجابة أهل مكة فيما اقترحوه من الآيات ، وليس عَجْزاً منّا عن الإتيان بها .

وقوله تعالى عن الناقة أنها آية ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ لبيان وضوحها ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. ⦗١٢⦘﴾ [الإسراء] فهل آية النهار مُبصِرة ، أم مُبْصَر فيها ؟

كانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى الشىء من شعاع ينطلق من عينه إلى الشىء المرئىّ فتحدث الرؤية ، إلى أن جاء ابن الهيثم وأثبت خطأ هذه المقولة ، وبيّن أن الإنسان يرى الشىء إذا خرج من الشىء شعاع إلى العين فتراه ، بدليل أنك ترى الشىء إذا كان فى الضوء ، ولا تراه إذا كان فى ظلمة ، وبهذا الفهم نستطيع القول بأن آية النهار هى المبصرة ؛ لأن أشعتها هى التى تُسبّب الإبصار .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً ⦗٥٩⦘﴾ [الإسراء]

أى : نبعث بآيات غير المعجزات لتكون تخويفاً للكفار والمعاندين ، فمثلاً الرسول ﷺ اضطهده أهل مكة ودبّروا لقتله جهاراً وعلانية ، فخيّب الله سَعْيهم ورأوا أنهم لو قتلوه لَطالبَ أهله بدمه ، فحاكوا مؤامرة أخرى للفتك به بليل ، واقترحوا أنْ يُؤْتَى من كل قبيلة بفتى جلْد ، ويضربوه ضَرْبة رجل واحد .

ولكن الحق سبحانه أطلع رسوله على مكيدتهم ، ونجّاه من غدرهم ، فإذا بهم يعملون له السحر لِيُوقِعوا به ، وكان الله لهم

بالمرصاد ، فأخبر رسوله بما يُدبّر له ، وهكذا لم يفلح الجهر ، ولم يفلح التبييت ، ولم يفلح السحر ، وباءت محاولاتهم كلها بالفشل، وعلموا أنه لا سبيلَ إلى الوقوف في وجه الدعوة بحال من الأحوال ، وأن السلامة في الإيمان والسير في ركابه من أقصر الطرق .

إذن : للحق سبحانه آيات أخرى تأتي لِرَدْع المكذبين عن كذبهم ، وتُخوّفهم بما حدث لسابقيهم من المُكذِّبين بالرسل ، حيث أخذهم الله أَخْذ عزيز مقتدر ، ومن آيات التخويف هذه ما جاء في قوله تعالى : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

فكل هذه آيات بعثها الله على أمم من المكذبين ، كُلّ بما يناسبه .

ثم يقول الحق سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ[1] فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾

أي : اذكر يا محمد ، وليذكر معك أصحابك إذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس ، فلا يمكن أن يتصرفوا تصرُّفاً ، أو يقولوا قولاً يغيب

(١) هي شجرة الزقوم التي قال عنها ربُّ العزة سبحانه : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤)﴾ [الدخان] ، وقال : ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦)﴾ [الصافات] .

عن علمه تعالى ، لأن الإحاطة تعنى الإلمام بالشىء من كُلّ نواحيه .

وما دام الأمر كذلك فاطمئن يا محمد ، كما نقول فى المثل (حُط فى بطنك بطيخة صيفى) ، واعلم أنهم لن ينالوا منك لا جهرة ولا تبييتاً ، ولا استعانة بالجنس الخفى (الجن) ؛ لأن الله محيط بهم، وسيبطل سَعْيَهم ، ويجعل كَيْدهم فى نحورهم .

لذلك لما تحدَّى الحق سبحانه وتعالى الكفار بالقرآن تحدَّى الجن أيضاً ، فقال : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا[1] (٨٨)﴾ [الإسراء]

ففى هذا الوقت كان يشيع بين العرب أن كل نابغة فى أمر من الأمور له شيطان يُلهمه ، وكانوا يدَّعُون أن هذه الشياطين تسكن وادياً يسمى « وادى عبقر » فى الجزيرة العربية ، فتحدَّاهم القرآن أنْ يأتوا بالشياطين التى تُلهمهم .

وهكذا يُطمئن الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأنه يحيط بالناس جميعاً ، ويعلم كل حركاتهم ظاهرة أو خفيّة من جنس ظاهر أو من جنس خفىّ ، وباطمئنان رسول الله تشيع الطمأنينة فى نفوس المؤمنين .

وهذا من قيوميته تعالى فى الكون ، وبهذه القيومية نردُّ على الفلاسفة الذين قالوا بأن الخالق سبحانه زاول سلطانه فى الكون مرة واحدة ، فخلق النواميس ، وهى التى تعمل فى الكون ، وهى التى تُسيِّره .

والرد على هذه المقولة بسيط ، فلو كانت النواميس هى التى

(١) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/٤١٨] .

تُسيِّر الكون ما رأينا فى الكون شـذوذاً عن الناموس العام ؛ لأن الأمر الميكانيكى لا يحدث خروجاً عن القاعدة ، إذن : فحدوث الشذوذ دليل القدرة التى تتحكم وتستطيع أن تخرق الناموس .

ومثال ذلك : النار التى أشعلوها لحرق نبى الله وخليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فهل كـان حظ الإيمان أو الإسلام فى أن ينجو إبراهيم من النار ؟

لا .. لم يكن الهدف نجاة إبراهيم عليه السلام ، وإلا لما مكّنهم الله من الإمساك به ، أو سخر سحابة تطفىء النار ، ولكن أراد سبحانه أن يُظهر لهـم آية من آياته فى خَرْق النامـوس ، فمكّنهم من إشـعال النار ومكّنَهم من إبراهيم حتى ألقوْه فى النار ، ورأوْهُ فى وسطها ، ولم يَعُدْ لهم حجة ، وهنا تدخلت القـدرة الإلهية لتسلب النار خاصـية الإحراق :
﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا[1] وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

إذن : فالناموس ليس مخلوقاً ليعمل مطلقاً ، وما حدث ليس طلاقة ناموس ، بل طلاقة قدرة للخالق سبحانه وتعالى .

فكأن الحق سـبحانه يريد أنْ يُسلِّىَ رسوله ويُؤْنسـه بمدد الله له دائماً ، ولا يفزعه أن يقوم قومه بمـصادمته واضطهاده ، ويريد كذلك أنْ يُطمئن المؤمنين ويُبشِّرهم بأنهم على الحق .

وقوله تعالى : ﴿ أَحَاطَ بِالنَّاسِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الإسراء]

الإحاطة تقتضى العلم بهم والقدرة عليهم ، فلن يُفلتوا من علم الله ولا من قـدرته ، ولا بُدَّ من العلم مع القـدرة ؛ لأنك قـد تعلم شـيئاً

---

(١) البرد : خلاف الحر . قال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله عز وجل قـال (وسلاماً) لأذى إبراهيم بردها . [تفسير ابن كثير ٣/١٨٤] .

ضاراً ولكنك لا تقدر على دَفْعه ، فالعلم وحده لا يكفى ، بل لا بُدَّ له من قدرة على التنفيذ ، إذن : فإحاطته سبحانه بالناس تعنى أنه سبحانه يُعلِّمهم ويقدر على تنفيذ أمره فيهم .

كلمة (الناس) تُطلَق إطلاقات متعددة ، فقد يراد بها الخلْق جميعاً من آدم إلى قيام الساعة ، كما فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ[1] الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ [الناس]

وقد يُراد بها بعض الخَلْق دون بعض ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٥٤) ﴾ [النساء]

فالمراد بالناس هنا رسول الله ﷺ حين قال عنه كفار مكة : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

وكما فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ .. (١٧٣) ﴾ [آل عمران] فهؤلاء غير هؤلاء .

وقد وقف العلماء عند كلمة الناس فى الآية : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء] وقصروها على الكافرين الذين يقفون من رسول الله موقف العداء ، لكن لا مانع أن نأخذ هذه الكلمة على عمومها ، فَيُراد بها أحاط بالمؤمنين ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، وأحاط بالكافرين وعلى رأسهم صناديد الكفر فى مكة .

---

(١) الخناس : الشيطان يتأخر ويبعد عند ذكر الله . [القاموس القويم ١/٢١١] .

(٢) سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن قول الله ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] قال : يعنى بالقريتين مكة والطائف ، والعظيم : الوليد بن المغيرة القرشى ، وحبيب بن عمير الثقفى . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧ / ٣٧٤) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه .

لذلك فالإحاطة هنا ليست واحدة ، فلكل منهما إحاطة تناسبه ، فإنْ كنتَ تريد الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله فهى إحاطة عناية وحماية حتى لا ينالهم أذى ، وإنْ أردتَ بها الكافرين فهى إحاطة حصار لا يُفلتون منه ولا ينفكُّون عنه ، وهذه الإحاطة لها نظير ، وهذه لها نظير .

فنظير الإحاطة بالكافرين قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ .. (٢٢)﴾ [يونس]

أى : حُوصِروا وضُيِّق عليهم فلا يجدون منفذاً .

ونظير الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢)﴾ [الصافات]

فالحق سبحانه محيط بالمؤمنين وبرسوله ﷺ إحاطة عناية ، وكأنه يقول له : امْضِ إلى شأنك وإلى مهمتك ، ولن يُضيرك ما يُدبِّرون .

لذلك كان المؤمنون فى أَوْج فترات الاضطهاد والقسوة من الكفار فى وقت كان المؤمنون غير قادرين حتى على حماية أنفسهم ينزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

حتى إن عمر ـ رضى الله عنه ـ الذى جاء القرآن على وَفْق رأيه يقول : أىّ جَمْع هذا ؟! ويتعجب ، كيف سنهزم هؤلاء ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا[1] وهذه تسلية لرسول الله وتبشير

---

(١) قال عكرمة : لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أىّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير فى تفسيره (٢٦٦/٤) وعزاه لابن أبى حاتم .

للمؤمنين ، فمهما نالوكم بالاضطهاد والأذى فإن الله ناصركم عليهم .

وكما قال فى آية أخرى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

فاذكر جيداً يا محمد حين تنزل بك الأحداث ، ويظن أعداؤك أنهم أحاطوا بك ، وأنهم قادرون عليك ، اذكر أن الله أحاط بالناس ، فأنت فى عناية فلن يصيبك شرٌ من الخارج ، وهم فى حصار لن يُفلتوا منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء]

كلمة ﴿ الرُّؤْيَا ﴾ مصدر للفعل رأى ، وكذلك (رؤية) مصدر للفعل رأى ، فإنْ أردتَ الرؤيا المنامية تقول : رأيتُ رُؤْيا ، وإنْ أردتَ رأى البصرية تقول : رأيتُ رؤية .

ومن ذلك قول يوسف عليه السلام فى المنام الذى رآه : ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَاىَ مِن قَبْلُ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ رؤيتى . إذن : فالفعل واحد ، والمصدر مختلف .

وقد اختلف العلماء : ما هى الرؤيا التى جعلها الله فتنة للناس ؟

جمهرة العلماء(١) على أنها الرؤيا التى ثبتتْ فى أول السورة : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١) ﴾ [الإسراء] أى : حادثة الإسراء والمعراج .

---

(١) قاله ابن عباس وأبو مالك وأم هانىء والحسن البصرى وقتادة ، أورد السيوطى آثارهم فى الدر المنثور (٥/٣٠٨ ، ٣٠٩) ، ونقل ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٩) اختيار ابن جرير الطبرى لهذا الرأى قال : « لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك » أى : فى الرؤيا والشجرة .

وبعضهم[1] رأى أنها الرُّؤيا التي قال الله فيها : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾ [الفتح]

فقد وعد رسولَ الله ﷺ بأنهم سيدخلون المسجد الحرام في هذا العام ، ولكن مُنعوا من الدخول عند الحديبية ، فكانت فتنة بين المسلمين وتعجبوا أنْ يعدهم رسول الله وَعْداً ولا ينجزه لهم .

ثم بيّن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لهم الحكمة من عدم دخول مكة هذا العام ، فأنزل على رسوله وهو في طريق عودته إلى المدينة :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا[2] أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا[3] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

إذن : الحق سبحانه منعهم تحقيق هذه الرؤيا في الحديبية ؛ لأنهم لو دخلوا مكة مُحاربين حاملين السلاح ، وفيها مؤمنون ومؤمنات

---

(١) قاله ابن عباس في رواية عنه قال : الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة في سنة الحديبية ، فرُدَّ فافتتن المسلمون لذلك ، فنزلت الآية ، فلما كان العام المقبل دخلها ، وأنزل الله تعالى ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ .. (٢٧) ﴾ [الفتح] . قال القرطبي في تفسيره (٤٠١١/٥) : « في هذا التأويل ضعف ، لأن السورة مكية ، وتلك الرؤيا كانت بالمدينة » .

(٢) معكوفاً : محبوساً عن أن يبلغ أماكن نَحْره . [القاموس القويم ٣٢/٢] .

(٣) لو تزيلوا : أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ، لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً . [تفسير ابن كثير ١٩٣/٤] .

لا يعلمهم أحد ، وسوف يصيبهم من الأذى وينالهم من هذه الحرب ؛ لأنهم لن يُميِّزوا بين مؤمن وكافر ، فقد يقتلون مؤمناً فتصيبهم مَعَرَّةٌ بقتله ، ولو أمكن التمييز بين المؤمنين والكفار لدخلوا مكة رَغْماً عن أنُوف أهلها .

لذلك كان من الطبيعي أنْ يتشكَّكَ الناس فيما حدث بالحديبية ، وأن تحدث فتنة تزلزل المسلمين ، حتى إن الفاروق ليقول لرسول الله ﷺ : ألسنا على الحق ؟ أليسوا هم على الباطل ؟ ألستَ رسول الله ؟ فيقول أبو بكر : الزم غَرْزَه يا عمر ، إنه رسول الله[1] .

وقد ساهمتْ السيدة أم سلمة - أم المؤمنين - في حلِّ هذا الإشكال الذي حدث نتيجة هذه الفتنة ، فلما اعترض الناس على رسول الله في عودته من الحديبية دخل عليها ، فقال : « يا أم سلمة ، هلك المسلمون ، أمرتُهم فلم يمتثلوا » . فقالت : يا رسول الله إنهم مكروبون ، جاءوا على شَوْق للبيت ، ثم مُنِعوا وهم على مَقْرُبة منه ، ولا شكَّ أن هذا يشقّ عليهم ، فَامْضِ يا رسول الله لما أمرك الله ، فإذا رأوك عازماً امتثلوا ، ونجح اقتراح السيدة أم سلمة في حل هذه المسألة[2] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٥/٤) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في حديث الحديبيةْ الطويل .

(٢) أخرج أحمد في مسنده (٣٢٥/٤) حديث الحديبية بطوله عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم ، وفيه : أن رسول الله ﷺ قال يأيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد . ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها ، فما قام رجل ، فرجع ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمن منهم إنساناً ، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون . حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق فنزلت سورة الفتح .

وقال بعضهم : إن المراد بالرؤيا التى جعلها الله فتنة ما رآه رسول الله ﷺ قبل غزوة بدر ، حيث أقسم وقال : « والله لكأنّى أنظر إلى مصارع القوم » . وأخذ يومِىء إلى الأرض وهو يقول : « هذا مَصْرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان »[١] .

وفعلاً ، جاءت الأحداث موافقة لقوله ﷺ فَقُلْ لى : بالله عليك ، مَن الذى يستطيع أنْ يتحكَّم فى معركة كهذه ، الأصل فيها الكَرّ والفَرّ ، والحركة والانتقال لِيُحدد الأماكن التى سيقتل فيها هؤلاء ، اللهم إنه رسول الله .

لكن أهل التحقيق من العلماء[٢] قالوا : إن هذه الأحداث سواء ما كان فى الحديبية ، أو ما كان من أمر الرسول يوم بدر[٣] ، هذه أحداث حدثتْ فى المدينة ، والآية المرادة مكية ، مما يجعلنا نستبعد هذين القولين ويؤكد أن القول الأول ـ وهو الإسراء والمعراج ـ هو الصواب .

وقد يقول قائل : وهل كان الإسراء والمعراج رؤيا منامية ؟ إنه كان رؤية بصرية ، فما سِرّ عدول الآية عن الرؤية البصرية إلى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) من هؤلاء العلماء القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١١) ، وابن كثير فى تفسيره (٣/٤٩) .

(٣) أمْر الرسول يوم بدر لم يرد فى تأويل هذه الآية ، ولكن ذكرت الكتب قولاً آخر ولكن العلماء ردوه وضعفوه . فعن سهل بن سعد قال : إنما هذه الرؤيا هى أن رسول الله ﷺ كان يرى بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة ، فاغتم لذلك ، وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات ﷺ . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١١) . وضعف ابن كثير سند هذا الحديث فى تفسيره (٣ /٤٩) وقال : « محمد بن الحسن بن زبالة متروك ، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية » .

الرؤيا المنامية ؟ وكيف يعطى الحق سبحانه وتعالى للكفار والمشككين فرصة لأن يقول : إن الإسراء والمعراج كان مناماً ؟

نقول : ومَنْ قال إن كلمة رؤيا مقصورة على المنامية ؟ إنها فى لغة العرب تُطلق على المنامية وعلى البصرية ، بدليل قول شاعرهم الذى فرح بصيد ثمين عنَّ له :

فكَبَّر للرُّؤْيَا وهَاش[1] فُؤَادُهُ ... وَبشَّرَ نَفْساً كَانَ قَبْلُ يَلُومُهَا

أى : قال الله أكبر حينما رأى الصيد الثمين يقترب منه ، فعبَّر بالرؤيا عن الرؤية البصرية .

لكن الحق سبحانه اختار كلمة ﴿ رُؤْيَا ﴾ ليدل على أنها شىء عجيب وغريب كما نقول مثلاً : هذا شىء لا يحدث إلا فى المنام . وهذا من دقَّة الأداء القرآنى ، فالذى يتكلم رَبٌّ ، فاختار الرؤيا ؛ لأنها معجزة الإسراء وذهاب النبى ﷺ من مكة إلى بيت المقدس فى ليلة .

فَوَجْه الإعجاز هنا ليس فى حدث الذهاب إلى بيت المقدس لأن كثيراً من كفار مكة قد ذهب إليها فى رحلات التجارة أو غيرها ، بل وَجْه الإعجاز فى الزمن الذى اختُصر لرسول الله ، فذهب وعاد فى ليلة واحدة ، بدليل أنهم سألوا رسول الله « صِفْ لنا بيت المقدس »[2].

---

(١) هش للشىء وهاش : سُرَّ به وفرح [وقد ذكر ابن منظور هذا البيت فى لسان العرب مادة هشش].

(٢) وذلك أن رجلاً منهم قال : « يا محمد أنا أعلم الناس ببيت المقدس ، فأخبرنى كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ، قال : فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس من مقعده ، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته ، قال : بناؤه كذا وكذا وهيئته كذا وكذا وقربه من الجبل كذا وكذا ، فقال الآخر : صدقت فرجع إليهم فقال : صدق محمد فيما قال » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/١٣) .

ولو كانوا يشكُّون في الحدث ما سألوا هذا السؤال ، إذن : فاعتراضهمْ على وقت هذه الرحلة التى كانوا يضربون إليها أكباد الإبل شهراً ، ويخبر محمد أنه أتاها فى ليلة واحدة ، ولأن الإسراء حدث فى هذا الزمن الضيق المختصر ناسب أن يُطلق عليه رؤيا ، لأن الرؤيا المنامية لا زمنَ لها ، ويختصر فيها الزمن كذلك .

ولقد توصّل العلماء الباحثون فى مسألة وعى الإنسان أثناء نومه ، وعن طريق الأجهزة الحديثة إلى أنْ قالوا : إن الذهن الإنسانى لا يعمل أثناء النوم أكثر من سبع ثوان ، وهذه هى المدَّة التى يستغرقها المنام .

فى حين إذا أردتَ أن تحكى ما رأيتَ فسيأخذ منكم وقتاً طويلاً . فأين الزمن - إذن - فى الرؤيا المنامية ؟ لا وجود له ؛ لأن وسائل الإدراك فى الإنسان والتى تُشعره بالوقت نائمة فلا يشعر بوقت ، حتى إذا جاءت الرؤيا مرَّتْ سريعة حيث لا يوجد فى الذهن غيرها .

لذلك مَنْ يمشى على عجل لا يستغرق زمناً ، كما نقول : (فلان يفهمها وهى طايرة) وهذا يدل على السرعة فى الفعل ؛ لأنه يركز كل إدراكاته لشىء واحد .

ومن ناحية أخرى ، لو أن الإسراء والمعراج رؤيا منامية ، أكانت توجد فتنة بين الناس ؟ وهَبْ أن قائلاً قال لنا : رأيت الليلة أننى ذهبتُ من القاهرة إلى نيويورك ، ثم إلى هاواى ، ثم إلى اليابان ، أنُكذِّبه ؟!

إذن : قَوْل الله تعالى عن هذه الرؤيا أنها فتنة للناس عَدَّلَتْ المعنى

من الرؤيا المنامية إلى الرؤية البصرية ، وكان الحق سبحانه اختار هذه الكلمة ليجعل من الكافرين بمحمد دليلاً على صدقه ، فيقولون : نحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً وأنت تدعى أنك أتيتها فى ليلة ؟ فلو كانت هذه الحادثة مناماً ما قالوا هذا الكلام .

لكن ، ما الحكمة من فتنة الناس واختبارهم بمثل هذا الحدث ؟

الحكمة تمحيص الناس وصَهْرهم فى بوتقة الإيمان لنميز الخبيث من الطيب ، والمؤمن من الكافر ، فلا يبقى فى ساحتنا إلا صادق الإيمان قوىُّ العقيدة ، لأن الله تعالى لا يريد أن يسلم منهجه الذى سيحكم حركة الحياة فى الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، إلا إلى قوم موثوق فى إيمانهم ليكونوا أهلاً لحمل هذه الرسالة .

فكان الإسراء هو هذه البوتقة التى ميَّزَتْ بين أصالة الصِّدِّيق حينما أخبروه أن صاحبك يُحدِّثنا أنه أتى بيت المقدس ، وأنه عُرِج به إلى السماء وعاد من ليلته ، فقال : « إنْ كان قال فقد صدق »(١) هكذا من أقرب طريق ، فميزان الصدق عنده مجرد أن يقول رسول الله . وكذلك ميزت الزَّبَد الذى زلزلته الحادثة وبلبلته ، فعارض وكذب .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ..(٦٠) ﴾ [الإسراء]

أى : وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنةً للناس أيضاً ، وإنْ كانت الفتنة فى الإسراء كامنة فى زمن حدوثه ، فهى فى الشجرة كامنَةَ فى أنها تخرج فى أصل الجحيم ، فى قَعْر جهنم ،

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدِّقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدِّقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

ومعلوم أن الشجرة نبات لا يعيش إلا بالماء والرى ، فكيف تكون الشجرة فى جهنم ؟

ومن هنا كانت الشجرة فتنة تُمحِّص إيمان الناس ؛ لذلك لما سمع أبو جهل هذه الآية جعلها مُشكلة ، وخرج على الناس يقول[1] : اسمعوا ما يحدثكم به قرآن محمد ، يقول : إن فى الجحيم شجرة تسمى « شجرة الزقوم » ، فكيف يستقيم هذا القول ، والنار تحرق كل شىء حتى الحجارة ؟

وهذا الاعتراض مقبول عقلاً ، لكن المؤمن لا يستقبل آيات الله استقبالاً عقلياً ، وإنما يعمل حساباً لقدرته تعالى ؛ لأن الأشياء لا تأخذ قوامها بعنصر تكوينها ، وإنما تأخذه بقانون المعنصر نفسه ، فالخالق سبحانه يقول للشجرة : كوني فى أصل الجحيم ، فتكون فى أصل الجحيم بطلاقة القدرة الإلهية التى قالت للنار : كُونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم .

وقد قال ابن الزِّبْعَرى حينما سمع قوله تعالى : ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)﴾ [الصافات]

فقال : والله ما عرفنا الزقوم إلا الزُّبْد على التمر ، فقوموا تزقَّموا

(١) عن قتادة قال : لما ذكر الله شجرة الزقوم افتتن بها الظلمة ، فقال أبو جهل : يزعم صاحبكم هذا ، أن فى النار شجرة ، والنار تأكل الشجر، وإنّا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ، فتزقموا ، فأنزل الله حين عجبوا أن يكون فى النار شجر ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)﴾ [الصافات] أى : غذيت بالنار ، ومنها خلقت ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات] قال : يشبهها بذلك .

معى[1] ، أى : استهزاءً بكلام الله ، وتكذيباً لرسوله ﷺ .

أما المؤمن فيستقبل هذه الآيات استقبالَ الإيمان والتسليم بصدق كلام الله ، وبصدق المبلِّغ عن الله ، ويعلم أن الأشياء لا تأخذ صلاحيتها بعنصر تكوينها ، وإنما بإرادة المعنْصِر أن يكون ؛ لأن المسألة ليست ميكانيكا ، وليست نواميس تعمل وتدير الكون ، بل هى قدرة الخالق سبحانه وطلاقة هذه القدرة .

ولسائل أن يقول : كيف يقول الحق سبحانه عن هذه الشجرة أنها (ملعونة) ؟ ما ذنب الشجرة حتى تُلْعَن ، وهى آية ومعجزة لله تعالى ، وهى دليل على اقتداره سبحانه ، وعلى أن النواميس لا تحكم الكون ، بل ربّ النواميس سبحانه هو الذى يحكم ويُغيِّر طبائع الأشياء ؟ كيف تُلْعَن وهى الطعام الذى سيأكله الكافر ويتعذب به ؟ إنها أداة من أدوات العقاب ، ووسيلة من وسائل التعذيب لأعداء الله .

نقول : المراد هنا : الشجرة الملعون آكلها ، لأنه لا يأكل منها إلا الأثيم ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان] والأثيم لا شكَّ ملعون .

لكن ، لماذا لم يجعل الملعونية للآكل وجعلها للشجرة ؟

---

(١) أورد الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٦) عن ابن عباس أنه قال : لما ذكر الله تعالى الزقوم خوّف به هذا الحى من قريش ، فقال أبو جهل : هل تدرون ما هذا الزقوم الذى يخوفكم به محمد عليه الصلاة والسلام ؟ قالوا : لا . قال : الثريد بالزبد ، أما والله لئن أمكننا فيها لنتزقمنها تزقماً ، فأنزل الله تعالى ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ .. ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء] . وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٣١٠) لابن إسحاق وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى البعث .

قالوا : لأن العربى دَرَجَ على أن كل شىء ضار ملعون ، أى : مُبْعَد من رحمة الله ، فكأن الكافر حينما يرى هذه الشجرة هو الذى يلعنها ، فهى ملعونة من آكلها . وقد أكل منها لأنه ملعون ، إذن : نستطيع القول إنها ملعونة ، وملعون آكلها[1] .

ومن الإشكالات التى أثارتها هذه الآية فى العصر الحديث قول المستشرقين الذين يريدون أن يتوركوا على القرآن ، ويعترضوا على أساليبه ، مثل قوله تعالى عن شجرة الزقوم : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات]

ووَجْه اعتراضهم أن التشبيه إنما يأتى عادةً ليُوضِّح أمراً مجهولاً من مخاطب بأمر معلوم له ، أما فى الآية فالمشبَّه مجهول لنا ؛ لأنه غَيْب لا نعلم عنه شيئاً ، وكذلك المشبَّه به لم نَرَهُ ، ولم يعرف أحد منّا رأس الشيطان ، فكيف يُشبِّه مجهولاً بمجهول ؟ لأننا لم نَرَ شجرة الزقوم لنعرف طَلْعها ، ولم نَرَ الشيطان لنعرف رأسه .

ثم يقولون : الذى جعل المسلمين يمرُّون على هذه الآية أنهم يُعطون للقرآن قداسة ، هذه القداسة تُربِّى فيهم التهيُّب أنْ يُقبلوا على القرآن بعقولهم ليفتشوا فيه ، ولو أنهم تخلصوا من هذه المسألة وبدأوا البحث فى أسلوب القرآن دون تهيُّب لاستطاعوا الخروج منه بمعطيات جديدة .

---

(١) ذكره أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٣٨ طبعة ١٩٨٥ م ـ دار الصابونى .

وللردِّ على قَوْل المستشرقين السابق نقول لهم : لقد تعلمتم العربية صناعة ، وليس عندكم الملَكة العربية أو التذوّق الكافى لفهم كتاب الله وتفسير أساليبه ، وفَرْقٌ بين اللغة كملَكَة واللغة كصناعة فقط .

الملَكة اللغوية تفاعل واختمار للغة فى الوجدان ، فساعة أنْ يسمعَ التعبير العربى يفهم المقصود منه ، أما اللغة المكتسبة - خاصة على كِبَر - فهى مجرد دراسة لإمكان التخاطب ، فلو أن عندكم هذه الملكة لما حدث منكم هذا الاعتراض ، ولعلمتم أن العربى قبل نزول القرآن قال[1] :

يَغُطُّ غَطيطَ البكْرِ شُدَّ خِنَاقُه ... لِيقتُلَنى والمرءُ ليسَ بقتَّالِ

أيقتُلنى وَ المشْرفىُّ[2] مُضَاجِعِى ... وَمسنُونَة زُرْقٍ كأنْيَابِ أغْوَالِ

فهل رأيتم الغول ؟ وهل له وجود أصلاً ؟ لكن الشاعر العربى استساغ ان يُشبِّه سلاحه المسنون بأنياب الغول ؛ لأن الغول يتصوَّره الناس فى صورة بشعة مخيفة ، فهذا التصوّر والتخيُّل للغول أجاز أنْ نُشبِّه به .

وكذلك الشيطان ، وإنْ لم يَرَهُ أحد إلا أن الناس تتخيله فى صورة بشعة وقبيحة ومخيفة ، فلو كلَّفنا جميع رسّامى الكاريكاتير فى العالم برسم صورة مُتخيَّلة للشيطان لرسم كل واحد منهم صورة تختلف

---

(١) هو : امرؤ القيس بن حُجْر ، شاعر جاهلى .

(٢) سيف مشرفىٌّ منسوب إلى قرية من أرض اليمن تسمى المشارف . [لسان العرب - مادة : شرف] .

عن الآخر ؛ لأن كـلاً منهم سيتصـوره بصورة خاصة حَسْب تصوره للشيطان وجهة البشاعة فيه .

فلو أن الحق سبحانه شبَّـه طَلْع شجرة الزقـوم بشىء معلوم لنا لَتصـوَّرناه على وجه واحد ، لكن الحق تبارك وتعـالى أراد أنْ يُشيعَ بشاعـته ، وأنْ تذهب النـفس فى تصوُّر بشـاعته كل مـذهب ، وهكذا يؤدى هـذا التشبيه فى الآيـة مَا لا يُـؤدِّيه غـيره ، ويُحـدث من الأثر المطلوب ما لا يُحدثه تعبير آخر ، فهو إبهام يكشف ويجلىِّ .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيراً (٦٠) ﴾ [الإسراء]

أى : نُخوِّفهم بأنْ يتـعرَّضوا للعقوبات التـى تعرَّض لها المكذِّبون للرسل ، فالرسل نهـايتهم النصر ، والكافرون بهم نهـايتهم الخُذْلان . وأنت حينما تُخوِّف إنساناً أو تُحذره من شـر سيقع له ، فقد أحسنتَ إليه وأسـديتَ إليه جميـلاً ومعروفاً ، كـالوالد الذى يُخوِّف ابنه عاقـبة الإهمال ، ويُذكِّره بالفشل واحتقار الناس له ، إنه بذلك ينصحه ليلتفت إلى دروسه ويجتهد .

فقوله تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء] التخويف هـنا نعمة من الله عليهم ، لأنه يُبشِّع لهم الأمر حتى لا يقـعوا فيـه ، وسبق أن ذكـرنا أن التـخـويف قد يكـون نعمـة فى قـوله تعـالى ، فى سـورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فجعل النار والشُّـوَاظ هنا نعمة ؛ لأنها إعلام بشىء سـيحدث فى المستقبل ، وسيكون عاقبة عمل يجب أن يحذروه الآن .

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

وقوله تعالى : ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء]

أى : يزدادون بالتخويف طغياناً ، لماذا ؟ لأنهم يفهمون جيداً مطلوبات الإيمان ، وإلا لو جهلوا هذه المطلوبات لقالوا : لا إله إلا الله وآمنوا وانتهت القضية ، لكنهم يعلمون تماماً أن كلمة لا إله إلا الله تعنى : لا سيادةَ إلا لهذه الكلمة ، ومحمد رسول الله لا بلاغَ ولا تشريعَ إلا منه ، ومن هنا خافوا على سيادتهم فى الجزيرة العربية وعلى مكانتهم بين الناس ، كيف والإسلام يُسوِّى بين السادة والعبيد ؟!

إذن : كلما خوَّفْتهم وذكَّرتهم بالله ازدادوا طغياناً ونفوراً من دين الله الذى سيهدم عليهم هذه السلطة الزمنية التى يتمتعون بها ، وسيسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم ؛ لذلك تجد دائماً أن السلطة الزمنية لأعداء الرسل ، وتأتى الرسل لهدم هذه السلطة ، وجَعْل الناس سواسية .

وقد اتضح هدم الإسلام لهذه السلطة الزمنية للكفار عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة ، وكان أهلها يستعدون لتنصيب عبد الله بن أبىٍّ ملكاً عليهم(١) ، فلما جاء رسول الله المدينة انفض الناس عن ابن أبىٍّ ، وتوجهت الأنظار إليه ﷺ ، وطبيعى - إذن - أن يغضب ابن أبىٍّ، وأن يزدادَ كُرْهه لرسول الله ، وأن يسعى لمحاربته ومناوأته ،

(١) ذكر البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤٩٩) أن رسول الله ﷺ حين دخوله المدينة مر بعبد الله بن أبى بن سلول وهو على ظهر الطريق ، وهو فى بيت ، فوقف عليه النبى ﷺ ينتظر أن يدعوه إلى المنزل ، وهو يومئذ سيد الخزرج فى أنفسها . فقال له عبد الله : انظر الذين دعوك فانزل عليهم ، فذكر رسول الله ﷺ لنفر من الأنصار وقوله على عبد الله بن أبىٍّ والذى قال له ، فقال له سعد بن عبادة : إنا والله يا رسول الله ، لقد كنا قبل الذى خصنا الله به منك ومَنَّ علينا بقدومك ، أردنا أن نعقد على رأس عبد الله بن أبىٍّ التاج ، ونُملِّكه علينا » .